

ويحكي القرآن الموقف قائلاً :

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ <sup>(١)</sup>  
فَلَشَغْفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ <sup>(٢)</sup> ﴾

وكلمة « النسوة » . وكلمة « نساء » تدل على الجماعة ، لكن مفرد كل منهما ساقط في اللفظ ، فمفرد « نسوة » امرأة ؛ ومفرد « نساء » أيضاً هو « امرأة » .

ومن العجيب أن المفرد ، وهو كلمة « امرأة » له مثني هو « امرأتان » ، لكن في صيغة الجمع لا توجد « امراءات » ، وتوجد كلمة نسوة اسم لجماعة الإناث ، واحدها امرأة ، وجمعها نساء .

وقد قالت النسوة :

﴿ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ .. (٣) ﴾ [يوسف]

وما قلَّنه هو الحق ؛ لكنهن لم يقلن ذلك تعصباً للحق ، أو تعصباً للفضيلة .

(١) قال القرطبي في تفسيره (٢٤٩٨/٤) : « قيل : امرأة ساقى العزيز ، وامرأة خبازة ، وامرأة صاحب درابه ، وامرأة صاحب سجنه . وقيل : امرأة الحاجب . عن ابن عباس وغيره » .

(٢) شغفه : أصاب شغاف قلبه أي غلافه ، أو أصاب باطنه وصميم قلبه . قال تعالى : ﴿ فَدَخَلَهَا حُبًّا .. (٣) ﴾ [يوسف] أي : أصاب شغاف قلبها بحب قوي نافذ كائنهم . ( القاموس القريم ٢٥٠/١ ) .

وشاء سبحانه أن يدفع هذه المقالة عنهم ، ففضح الهدف المخفى وراء هذا القول في الآية التالية حين قال :

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ٢٢١ ﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ٢٢٢ ﴿

[يوسف]

والمكر هو ستر شيء خلف شيء ، وكان الحق يُنبئها إلى أن قول النسوة لم يكن غضبة للحق ؛ ولا تعصيا للفضيلة ، ولكنه الرغبة للنكاي<sup>(١)</sup> بامرأة العزيز ، وقصدا للضلال الذي أقامت فيه امرأة العزيز .

وآرئ - أيضا - شيئا آخر : أن يُنزِلْنَ امرأة العزيز عن كبرياتها ، وينشرن فضيحتها ، فأتَيْنَ بنقيضين ؛ لا يمكن أن يتهدى الموقف فيهما إلا خسيس المنهج .

فهي امرأة العزيز<sup>(٢)</sup> ، أي : أرفع شخصية نسائية في المجتمع ، قد نزلت عن كبرياتها كزوجة لرجل يُوصَفُ بأنه الغالب الذي لا يُغلب ؛ لأن كلمة « العزيز » مأخوذة من المعاني الحسية .

(١) نكى البدن نكايًا - أصاب منه . وقد نكحت في العدو أنكى نكايًا أي هزمته وغلبته ، فنكس ينكس نكسًا . [لسان العرب - مادة : نكس] .

(٢) تكرر معاني العزيز حول من بيده السلطان والقوة ويبيد مقاليد الحكم لا يراجعه أحد شيئًا ، بل هو يملك سلطة الأمر والنهي . [راجع : لسان العرب - مادة : عزز] .

فَيُقَالُ : « الْأَرْضُ الْعَزَازُ » <sup>(١)</sup> أَيْ : الْأَرْضُ الصَّغِيرَةُ الَّتِي يَصْعَبُ  
الْمَشْيُ عَلَيْهَا ، وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَطَافَهَا ؛ وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى جَاءَتْ كَلِمَةُ  
« الْعَزِيزُ » .

فَكَيْفَ بِامْرَأَةِ الْعَزِيزِ حِينَ تَصِيرُ مُضَفَّةً <sup>(٢)</sup> فِي الْأَقْوَالِ ؛ لِأَنَّهَا  
رَأَوْتُ قَتَامَهَا وَخَادِمَهَا عَنْ نَفْسِهِ ؛ وَهُوَ بِالنِّسْبَةِ لَهَا فِي أَدْنَى مَقْزَلَةٍ ،  
وَتِلْكَ قَضِيحَةٌ مَزْرِيَّةٌ <sup>(٣)</sup> مَشِيئَةٌ <sup>(٤)</sup> .

وَقَالَتْ النَّسْوَةُ أَيْضًا :

﴿ قَدْ شَفَّفَهَا حُبًّا ۖ ﴾ <sup>(٥)</sup> [يوسف]

وَالْحُبُّ مَنَازِلٌ ؛ وَأَوَّلُ هَذِهِ الْمَنَازِلِ « الْهَوَى » مِثْلُ : شَقَشَقَةٌ <sup>(٦)</sup>  
النَّبَاتِ ، وَيُقَالُ : « رَأَى شَيْئًا فَهَرَاءً » .

(١) قَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ فِي [ لِسَانِ الْعَرَبِ - مَادَّةُ : عَزَزَ ] : « الْعَزَزُ وَالْعَزَازُ : الْمَكَانُ الصَّغِيرُ  
الصَّرِيعُ السَّجِلُ » . وَقَالَ ابْنُ شَعْبِيلٍ : الْعَزَازُ مَا غَلِظَ مِنَ الْأَرْضِ ، وَلِنَّمَا يَكُونُ فِي لُطْرَافِهَا ،  
وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ ﷺ نَهَى عَنْ الْبُيُولِ فِي الْعَزَازِ لِأَنَّهُ يَذْرُوشُ عَلَيْهِ » .

(٢) مُضَفٌّ يَمْضَغُ : لَاقٍ ، وَمُضَفٌّ الطَّعَامُ يَمْضَغُهُ مُضَفًّا ، وَالْمُضَفَّةُ : الْقِطْعَةُ مِنَ اللَّحْمِ ،  
وَالْمُضَفُّ لِقَمَرٌ : حَانَ أَنْ يُضَفَّ ، وَتَعَرَّ ذُو مُضَفَّةٍ : صَاحِبُ مَتْنٍ يُضَفِّغُ كَثِيرًا ، وَمُضَفِّغُ  
الْأُمُورِ : حَاكِمُهَا [ لِسَانُ الْعَرَبِ : مَادَّةُ - مُضَفٌّ ] وَالْمَقْصُودُ تَضْيِيقُهَا بِقِطْعَةِ اللَّحْمِ الَّتِي  
يَلُوكُهَا النَّاسُ فِي أَقْرَابِهِمْ .

(٣) الْإِزْرَاءُ : التَّهَاقُوتُ بِالْخُسْرِ ، وَازْدِرَائُهُ أَيْ حَقَرُهُ ، وَالْإِزْمَاءُ : الْإِحْتِقَارُ وَالْإِنْتِقَامُ وَالْعَيْبُ ،  
وَهُوَ الْفِتْعَالُ مِنْ زَرَيْتَ عَلَيْهِ زَرِيَّةٌ إِذَا عَيْبَهُ - [ لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّةُ : زَرَى ] .

(٤) الشَّيْنُ : الْعَيْبُ ، وَهُوَ خِلَافُ الزَّيْنِ ، قَالَ الْفَرَّاءُ : الْعَيْنُ وَالشَّيْنُ وَالشُّثَارُ أَيْ : الْعَيْبُ ،  
وَالْعَشَائِرُ : الْمَحَابِبُ وَالْمُقَابِلُ - [ لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّةُ : شَيْنَ ] .

(٥) شَقَّ النَّبَاتُ يَشُقُّ شَقْوًا ، وَكَذَلِكَ فِي أَوَّلِ مَا تَنْقَطِرُ عَنْهُ الْأَرْضُ - وَشَقَّ ذَا بُ الْحَصْبَى يَشُقُّ  
شَقْوًا ؛ فِي أَوَّلِ مَا يَظْهَرُ - [ لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّةُ : شَقَّقَ ] .

وقد ينتهى هذا الهوى بلحظة الرؤية ، فإذا تعلّق الإنسان بما رأى : انتقل من الهوى إلى العلاقة<sup>(١)</sup> .

وبعد ذلك يأتى الكلف<sup>(٢)</sup> : أى : تكلف أن يصل إلى ما يطلبه من هذه العلاقة . ثم ينتقل بعد ذلك إلى مرتبة فيها التقاء وهى العشق<sup>(٣)</sup> ، ويحدث فيها تبادل للمشاعر ، ويعطى كل طرف كلفه ؛ ولذلك يسمونه « عاشق ومعشوق » .

ثم ينتقل إلى مرحلة اسمها « التذليّه »<sup>(٤)</sup> : أى : يكاد أن يفقد عقله . ثم يصير الجسم إلى مُزّال ويقال « تيلت<sup>(٥)</sup> الفؤاد » أى : تاه الإنسان فى الأمر .

ثم تأتى بعد ذلك مرحلة الهيام<sup>(٦)</sup> ، أى : يهيم الإنسان على

(١) علق الشيء علماً وعلق به علاقة وعلوقاً : لزمه . والعلاقة : الهوى والحب اللّازم للقلب . وقد علقها علماً وعلاقة وعلق بها علقاً وتعلّق بها : أحبها . وقال الحميلنى : العلق الهوى يكون للرجل فى المرأة . [ لسان العرب - مادة : علق ] .

(٢) الكلف : الراح بالشيء مع شغل قلب ومشقة . وكلف بالشيء كلفاً وكثّفه : لهج به . وكلف بها أشد الكلف : أحبها . ورجل مكلاف : محب للخلاء . [ لسان العرب - مادة : كلف ] .

(٣) العشق : شدة الحب . وسمى العاشق عاشقاً لأنه يذبل من شدة الهوى كما تذبل العنقة إذا قطعت . والعنقة : شجرة تخضر ثم تدقّ وتفسفر . عن الزجاج . [ لسان العرب - مادة : عشق ] .

(٤) قال ابن القيم فى روضة المحبين ( ص ٥٩ ) : « وأما التذليّه فى الصّاح : التذليّه ذهاب العقل من الهوى . يقال : ذلّه الحب . أى : حيرّه وأبغضه » .

(٥) قال فى روضة المحبين ( ص ٤٩ ) : « أما التيلّالة فهى لهالة من تيلّه إذا افتناه . قال الجوهري : تيلّهم الدهر وأتيلّهم إذا افتناهم . وتيلّه الحب . وأتيلّه . أى أسقمه وأفسده » .

(٦) الهيام : كالجنون . وقد هيّمه الحب . والاسم الهيام . ورجل هيّمان : محب شديد الرّجاء . قال ابن السكيت : الهيم : محسّر هام يهيم هيّماً وهيّماناً إذا أحب المرأة . والهيام : العشاق . والهيموم : أن يذهب على وجهه . [ لسان العرب - مادة : هيم ] .

وجهه : فلا يعرف له هدفاً ، فإن تبع ذلك جرم صار اسمه  
« جوى »<sup>(١)</sup> .

تلك هي مراحل الحب التي تمر بالقلب<sup>(٢)</sup> ، والقلب - كما نعلم -  
هو الجهاز الصنوبري ، ويسمونه مَقَرَّ العقائد المنتهية ، والتي بحثها  
الإنسان واعتقدتها بالفعل .

فالإنسان منا يدرك الأشياء بحواسه الظاهرة ، يرى ويشم ويسمع  
ويذوق ويمس ، فإنا أدرك بعضاً من الأمور : فهو يعرضها على  
العقل لموازن بينها : ويختار الأكثر قبولاً منه ، وبعد ذلك تذهب تلك  
الأمور المقبولة إلى القلب : لتستقر عقيدة فيه لا يحيد عنها .

أما المسائل العقلية : فقد تأتي مسائل أخرى تزحزحها ؛ ولذلك  
يقال للأمور التي استقرت في القلب « عقائد » ، أي : شيء معقود  
لا ينحل أبداً .

وما يصل إلى هذه المرتبة يظهر أثره في إخضاع سلوك حركة  
الحياة عليه ، وإذا ما استقر المبدأ في نفس الإنسان : فهو يجعل كل  
حركته في ظل هذا المبدأ الذي اعتقده .

ويمكننا تعريف : كيف تمر العقيدة بعدة مراحل قبل أن تستقر في  
النفس ، فالإدراك<sup>(٣)</sup> يحدث أولاً ؛ ثم التعمُّل ثانياً ؛ وبعد ذلك يعتقد

(١) الجوى : الحرة وشدة الوجد من عشق أو حزن . [ لسان العرب - مادة : جوى ] .

(٢) ذكر ابن القيم في روضة المعبين ( ص ٢٥ ) نورا من سنين اسماً للمحبة ، لكل اسم  
مقام أو درجة في الحب .

(٣) ويتفق مراد الإمام مع ما ذهب إليه علماء النفس عند اختيار الأشياء ، فلا بد من الإدراك ،  
ثم الانفعال ، ثم النزوع ، أي : الاختيار .

الإنسان الأمر، ويصبح كل سلوك من بعد ذلك وفقاً لما اعتقده الإنسان .

وكلمة : ﴿ شَفَقَهَا حَبًا .. ﴾ (٣٥)

[يوسف]

تعني أن المشاعر انتقلت من إدراكها إلى عقلها إلى قلبها ،  
والشفاف هو الغشاء الرقيق الذي يستقر القلب : أي : أن الحب تمكّن  
تماماً من قلبها .

وقولهن :

﴿ إِنَّا نَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٣٦)

[يوسف]

هو قول حق أريد به باطل .

ولذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك ما يوضح مقصدهن :

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكِنًا  
وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ  
 أَكْبَرْتَهُمْ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا  
إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ (٣٧)

(١) تكبره يتكبره : جلس متمكناً . أصله أوتكا . قال تعالى : ﴿ وَسَرَّرْنَا عَلَيْهِمْ تَجْوِينَ ﴾ (٣٧)

[الزخرف] وقال أيضاً : ﴿ مَتَّكِنِينَ لَهَا عَلَى الْأَرْكَانِ .. ﴾ (٣٨) [القصص] . والمتكا : اسم مكان .

قال تعالى : ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكِنًا .. ﴾ (٣٧) [يوسف] أي : مكاناً مريحاً يجلسن فيه متمكنات

متمكنات . والمتكا : ما يتكبر عليه الإنسان من عقدة أو أريكة . [ القاموس القويم ٢/٣٥٢ ] .

(٢) تكبر الشرة : عده كبيراً ، أو عظم شأنه به فراه كبيراً ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْتَهُ .. ﴾

(٣٧) [يوسف] [ القاموس القويم ٢/١٥٠ ] .

(٣) حاشى ش . أي : برأه ش ومعا ش . قال ابن الأثيري : معنى حاشى في كلام العرب

أعزل فلاناً من وصف القوم بالحشى وأعزله بتأخيه ، ولا أنظه في جهلتهم . [ لسان

العرب - مادة : حشا ] .

ولسائل أن يقول : وكيف انتقل لهُنَّ الكلام عن الذي حدث بينها وبين يوسف ؟

لا بُدَّ أن هناك مرحلة بين ما حدث في القصر : وكان أبطاله أربعة هم : العزيز ، وامراته ، ويوسف ، والشاهد ، ولا بد أن يكون مَنْ نقل الكلام إلى خارج القصر : إنسان له علاقة بالقصر فسمع ورأى وأدرك : ونقل ما علم إلى مَنْ له به علاقة خارج القصر .

ويبحث العلماء عن علاقة النسوة اللاتي ثرثن بالأمر ، وقال العلماء<sup>(١)</sup> : هُنَّ خمسة نساء : امرأة الساقى ، وامرأة الخباز ، وامرأة الحاجب ، وامرأة صاحب الدواب ( أى : سائس الخيل ) ، وامرأة السجن .

وهؤلاء النسوة يَحِشُّنَ داخل بيوتهن : فَمَنْ الذى نقل لهُنَّ أسرار القصر ؟

لا بُدَّ أن أحداً من أزواجهن قد أراد أن يُسَلِّيَ أهل ، فنقل خبر امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام : ثم نقلت زوجته الخبر إلى غيرها من النسوة .

وحين وصل إلى امرأة العزيز الخبر : وكيف يمكن بها : أرسلت إليهن :

﴿ رَأَعَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَأً وَآتَتْ كُلَّ رَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ۖ ﴾ [يوسف]

والمتكأ هو الشيء الذى يستند إليه الإنسان حتى لا يطول به طَلٌّ

(١) انظر : تفسير القرطبي (٦/٢٤٩٨) ، ذكره عن ابن عباس وغيره .

من كيفية جلّسه ، والمقصود بالقول هو أن الجلسة سيطول وقتها ،  
وقد خططت لتكشف وقّع رؤية يوسف عليهن ، فقدمت لكل منهن  
سكيناً ؛ وهو ما يوحى بأن هناك طعاماً سوى يؤكل .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيَّهِنَ فَلَمَّا رَأَتْهُ أَكْبَرَتْهُ .. ﴾ (٢٦) [يوسف]

ويقال : أكبرت الشيء ، كأنك قد تخيلته قبل أن تراه على  
حقيقته ؛ وقد يكون خيالك قد رسم له صورة جميلة ، إلا أنك حين  
ترى الشيء واقعاً : تكبر المرائى عن التخيل .

والمثل أن إنساناً قد يُحدثك بخير عن آخر : ولكنك حين ترى هذا  
الآخر تفاجأ بأنه أفضل مما سمعت عنه .

والشاعر يقول :

كَادَتْ مُسَاءَلَةُ الرُّكْبَانِ تُخْبِرُنِي      عَنْ جَعْفَرِ بْنِ حَبِيبٍ أَصْنَقَ الْقِيمِ  
هَتَّى التَّقْسِيمَ فَلَا وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ      أَذُنِي بِأَطِيبٍ مِمَّا قَدْ رَأَى بَصَرِي

ويقولون هي المقابل : سماعك بالمعبدى خير من أن تراه<sup>(١)</sup> . أى :  
يا لبتك قد ظلمتَ تسمع عنه دون أن تراه ؛ لأن رؤيتك له ستُنقص من  
قدر ما سمعت .

(١) هذا مثل يُضرب لمن خبره خير من مرآته ، يُضرب للرجل الذي له صوت وذكر . فإذا  
رأيتَ أذنبيتَ مرآته . ومعنى : حتى أو اسم القبيلة . فإما قولهم في المثل : تسمع بالمعبدى  
لا أن تراه ، فمخفف عن القياس اللازم في هذا الضرب . [ لسان العرب - مادة : معبد ] .



وَهُنَّ حِينَ أَذَيْنَ امْرَأَةَ الْعَزِيزِ بِتَدَاوُلِ خَبَرِ مُرَاوَدَتِهَا لَهُ عَنْ نَفْسِهِ ،  
تَخِيلَنَّ لَهُ صُورَةُ مَا مِنَ الْحُسْنِ ، لَكِنَّهُنَّ حِينَ رَأَيْنَهُ فَاقَتْ حَقِيقَتَهُ  
الْعَرْتِيَّةَ كُلَّ صُورَةِ تَخِيلَتِهَا عَنْهُ ؛ فَحَدَّثَ لَهُنَّ انْبِهَارَ .

وأول مراحل الانبهار هي الذهول الذي يجعل الشيء الذي طرأ  
عليك يذهلك عما تكون بصددده ؛ فإن كان في يدك شيء قد يقع منك .

وقد قطعت كل منهن يدها بالسكين التي أعطتها لها امرأة العزيز  
للتقطيع الفاكهة ، أو الطعام المقدم لهن .

وقال الحق سبحانه في ذلك :

﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ <sup>(١)</sup> أَيْدِيَهُنَّ .. (٣٦) ﴾ [يوسف]

وهل هناك تصوير يوضح ما حدث لهن من ذهول أدق من هذا  
القول <sup>(٢)</sup> ؟

ويتابع سبحانه :

﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣٧) ﴾ [يوسف]

(١) ذكر الفرطبي في تفسيره (٢٥٠٢/٤) : « قال مجاهد : قطعنها حتى ألقينها . وقيل :  
خدشنها . ودرى ابن أبي نجيع قال : خدًا بالسكين . قال النحاس : يريد مجاهد أنه ليس  
قطعا تبين منه اليد ، إنما هو خدش وخر ، وذلك معروف في اللغة أن يقال إذا خدش  
الإنسان يد صاحبه قطع يده . »

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٤٧٦/٢) : « نكر غير واحد أنها قالت لهن - بعد أن اتت كل  
واحدة منهن سكيناً - : هل تكن في الظهر إلى يوسف ؟ قلن : نعم . فبعثت إليه تامره أن  
أخرج إليهن . فلما رأينه جعلن يقطعن أيديهن ، ثم أمرته أن يرجع ، فرجع وهن يجرزن في  
أيديهن ، فلما أحسسن بالألم جعلن يولولن . فقالت : أتقن من نظرة واحدة فطقتن هذا ،  
ككيف ألام لنا ؟ » .

وكلمة : ﴿ حَاشَ ۚ ۚ ﴾ (٣٦)

[يوسف]

هي تقوية لله سبحانه عن العجز عن خلق هذا الجمال المثالي ،  
أو : أنهنَّ قد تَزَهَّنَّ صاحب تلك الصورة عن حدوث منكر أو فاحشة  
بينه وبين امرأة العزيز ، أو : أن يوسف عليه السلام لا بد أن يكون  
قد خرج عن صورة أرقى من صورة الإنس التي يعرفونها<sup>(١)</sup> : فَقُلْنَ :  
لا بد أنه ملك كريم .

وصورة الملك كما نعلم هي صورة مُتَخَيَّلَة ، والإنسان يحكم على  
الأشياء المُتَخَيَّلَة بما يناسب صورتها في خياله ، مثلما نتخيل الشيطان  
كأشنع ما تكون الصورة .

والبشاعة نفسها تختلف من واحد إلى آخر : فما تراه بشعاً قد  
لا يراه غيرك كذلك : لأن مقاييس القبح أو الجمال تختلف من أمة إلى  
أخرى .

فالمرأة الجميلة في أواسط إفريقيا في نظر الرجل هي ذات الشفاء  
الخليطة جداً : أو صاحبة الشعر المُجَعَّد والمُتَمَوِّج .

وأكدت الحضارة الحديثة أن هذا لونٌ من الجمال يجذب إليه  
الرجل في بعض الحالات : بدليل أن بعضاً من السيدات ثورات الشعر  
الناعم للغاية يذهبن إلى مُصَفِّفَة الشعر ، ويطلبن منها تجديد  
شعورهن .

(١) قال القشيري أبو نصر : وفكرت للنسوة أن صورة يوسف أحسن من صورة البشر . بل  
هو في صورة ملك . وقال الله تعالى : ﴿ قَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقَرُّمٍ ﴾ [التين]  
والجمع بين الأيتين أن قولهن ( حاشَ ۚ ۚ ) نبرة ليوسف عما رُمِيَ به امرأة العزيز من  
المرادة . ذكره القرطبي في تفسيره (٤/٢٥٥) .

إن : فالجمال يُقاس بالأذواق ؛ هذا يرى جمالاً قد يراه غيره غير هذا ؛ وذلك يرى جمالاً لا يراه غيره كذلك .

والحق سبحانه يقذف معايير الجمال في النفس الإنسانية على قدر مقومات الالتقاء في الانسجام .

ولذلك يُقال في الريف المصري هذا المثل دكل فولة ولها كَيَال .

ونجد شاباً يتقدم الفتاة يرغب في الزواج منها ؛ وما أن يراها حتى ينفر منها ، ويتقدم لها شاب آخر فيقع في هواها ، ويتعجل الزواج منها ، وهذا يعني أن مقاييس الأول تختلف عن مقاييس الثاني .

وحين يشاء الحق سبحانه أن يجمع بين اثنين فلا أحد يقاوم على أن يمنع القبول من كل طرف للطرف الآخر ؛ وهذه مسألة لها من الأسرار ما لا نعرفه نحن ؛ لأنه سبحانه الذي يكتب القبول ؛ ويظهر في المرأة جمالاً قد يجذب رجلاً ولا يجذب رجلاً آخر ، ونفس المسألة تحدث في نفسية المرأة .

إن : فحين رأت النسوة يوسف عليه السلام ؛ قلن :

﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ (٢١)

[يوسف]

وهذا يعني أن يوسف هو الصورة العليا في الجمال التي لا يوجد لها مثيل في البشر<sup>(١)</sup> .

(١) عن أبي رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أعطى يوسف وأمه شطر الحسن » أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٦/٣) والحكم في مستدركه (٥٧٠/٢) .

وأورد السيوطي في كتابه ( الدر المنثور ) ( ٥٢٢/٤ ) عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : كان وجه يوسف مثل البرق ، وكانت المرأة إذا كتبت لحاجة ستر وجهه مخافة أن تفتتن به . وعزه للحكيم الترمذي في نواتر الأصول وابن العنذر وابن كهي حاتم وأبي الخفيف والطبراني .

ويعد ذلك يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان امرأة العزيز رداً

عليهن :

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ  
نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أمْرُهُ لَكُنَّ  
وَلَيْكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (٣٢)

وكانها وجدت الفرصة لتثبت لنفسها العذر في سراودتها له ،  
فيوسف باعترافهن قد بلغ من الجمال ما لا يوجد مثله في البشر .

وقولها : ﴿ فَذَلِكُنَّ .. ﴾ (٣٢)

مكون من « ذا » إشارة ليوسف ، و « ذالكُنَّ » خطاب للنسوة ،  
والإشارة تختلف عن الخطاب .

(١) لامة يلومه لوماً : عذله على عمل لا ينبغي ولا يليق فهو لائم . وتلاوم الرجلان : لا م كل  
منهما الآخر : ﴿ قَالُوا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَامِؤْنَ ﴾ [النمل] . وآلام : جر على نفسه اللوم  
يفعل ما لا ينبغي فهو ملئم : مستحق للوم . قال تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَخَوُّنَ وَهُوَ يُعَلِّمُ  
[الصافات] أي : مذهب مستحق للوم . [ القاموس القويم ٢/ ٢٠٨ ] يتصرف .

(٢) عصمه يعصمه : منعه وولاه ، قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة] يحفظك  
ويقيك . وقوله : ﴿ مَا كُنَّا فِيهِ بِمُصْبِحِينَ مِنَ الْمَاءِ ﴾ [هود] يحفظني . واعتصم : تمسك  
بقوة . قال تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا .. ﴾ [آل عمران] أي : تمسكوا بدينه .  
واستعصم : طلب لنفسه العصمة وتمسك بها . قال تعالى : ﴿ وَقَدْ رَوَدُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ  
(٣٢) [يوسف] أي : فامتنع متمسكاً بعصمته وعفة نفسه وبحفظها من السوء . [ القاموس  
القويم ٢/ ٢٢ ، ٢١ ] .

(٣) الصَّغِيرُ يكون سادياً في السبب . ويكون معنوياً في القدر والمنزلة وهو ضد الكبير .  
وصغير : في حجمه أو في قدره ومنزلته . فمن المادى قوله : ﴿ وَلَا تَسْأَلُوا أَنْ تَكُونُوا صَغِيرًا  
لَوْ كُنْتُمْ عَارِفِينَ ﴾ [البقرة] . ومن المعنوي قوله : ﴿ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [الاعراف]  
[ القاموس القويم ١/ ٣٧٧ ] .

وهنا موقف أسلوبى : لأن الكلام حين يُنطق به ، أو حين يُكتب ليقرأ : له ألوان متعددة ، فمرة يكون نثراً لا يجمعه وزن أو قافية<sup>(١)</sup> : وقد يكون نثراً مسجوعاً<sup>(٢)</sup> أو مُرسلاً ، ومرة يكون الكلام شعراً محكوماً بوزن وقافية .

والمثل على النثر المسجوع هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَالطُّورُ <sup>(١)</sup> ﴾ وَكَعَابٍ مُسْتَوِرٍ <sup>(٢)</sup> فِي رَقٍّ <sup>(٣)</sup> مُنَشَّورٍ <sup>(٤)</sup> وَالْبَيْتُ الْمَعْمُورُ <sup>(٥)</sup> [ الطور ]

وهذا نثر مسجوع بلا تكلف ، وأنت إذا سمعت أو قرأت كلاماً : فإذنك تأخذ منه على قدر سمو أسلوبه ، لكنك إن انتقلت من أسلوب إلى أسلوب ، فإذنك لتتقط الفارق بين الأسلوبين .

والمثل نجده فى الرسالة التى كتبها ابن زيدون<sup>(٥)</sup> مُستعظفاً ابن جهور:

(١) القافية من الطمر : سميت قافية لأنها تغزو البيت . وقال الأخطى : القافية آخر كلمة فى البيت .  
(٢) السجع . الكلام المتطلى . وسجع يسجع سجعاً تسجيماً : تكلم بكلام له فواصل كواصل الشعر من غير وزن ، وصاحبه سجاعة وهو من الاستواء والاستقامة والاشتباه كان كل كلمة تشبه صاحبتها . قال ابن جنى : معنى سجعاً لاشتباه أواخره وتناسب فواصله . [ لسان العرب - مادة : سجع ] .

(٣) الطور : جبل بسيفاء نزل عليه موسى عليه السلام بعد خروجه مع قومه من مصر ، قال تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ <sup>(١)</sup> ﴾ [ النساء ] ، ويسمى أيضاً : ﴿ طُورِ سَيْيَءٍ <sup>(٢)</sup> ﴾ [ المؤمنون ] و ﴿ وَطُورِ سِينٍ <sup>(٣)</sup> ﴾ [ التين ] . [ القاموس القويم ٤٠٨/١ ] .

(٤) الرِّق : الجلد الرقيق يُكتب عليه . وأطلق على الصحيفة البيضاء يكتب عليها . [ القاموس القويم ٢٧٢/١ ] .

(٥) هو : أحمد بن عبد الله بن زيدون المغمزوى الأندلسى ، أبو الوليد ، وزير كاتب شاعر ، من أهل قرطبة ، ولد ٣٦٤ هـ ، انتظم إلى ابن جهور ( من ملوك الطوائف بالأندلس ) فكان التفسير بينه وبين الأندلس ، قرأ بإشبيلية عام (٤٦٣هـ) فى أيام المعتمد على الله ابن المعتمد . [ الأعلام للزركلى ١٠٨/١ ] بتصريف .

« هذا العُتْبُ محمودٌ عراقيه ، وهذه الغُمرَةُ قُبُورَةٌ ثم تنجلي ، ولن يريبنى من سيدى إن أبطأ سببه أو تأخر ، غير ضفين ضناه ، فإبطاً الدلاء قُبُضاً أملوها ، وانتقلُ السحابُ مشياً أعقلها ، ومع اليوم غد . ولكل أجل كتاب ، له الحمد على امتيالك ، ولا عُتْبُ عليه فى اغتقال . فإن يكن الفعلُ الذى ساء واحداً فافعله اللاتى سَرَرْنَ ألوفُ وهكذا تشعر انتقال ابن زينون من النثر إلى الشعر ، ولكنك وانت تقرأ القرآن ، تنتقل من النثر المُرسَل إلى النثر المسجوع إلى التنظيم الشعرى على وزن بحور الشعر ، فلا تكاد تفرق فى الأسلوب بين شعر أو نثر .

والعمل نجده فى الآية التى نحن بصدد خواتمنا عنها :

﴿ فَذَلِكَ الَّذِي لُمْتَنِي فِيهِ . (٤٢) ﴾ [يوسف]

فهى موزونة من بحر البسيط . ولكنك لا تشعر أنك انتقلت من نثر إلى شعر .

وكذلك قوله الحق :

﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ [إِنِّي صِرَاطٌ<sup>(١)</sup> مُسْتَقِيمٌ (٤٦) ] ﴾ [النور]

وايضاً قوله الحق :

﴿ نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٦) ﴾ [الحجر]

(١) قال الأزهرى : قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم والكسائى : أمينا الصراط المستقيم . بالصاد . والوا يعقوب بالسين . قال : وأصل صاده سين فليت مع الظاء صاداً للرب مخرجها . قال الجوهري : الصراط والسرط : الطريق . [ لسان العرب - مادة : صراط ] .

وتأتى تلك الآيات فى مواقع قد يكون ما قبلها نشرًا ، مما يدلُّ على أن النغم الذى قاله الله نَظْمًا أو شعرًا أو نشرًا لا نشرًا<sup>(١)</sup> فيه ، ويكاد أن يكون سَيِّلاً واحداً .

وهذا لا يتأتى إلا من كلام الحق تبارك وتعالى ، وأنت لن تشعر بهذا الأمر لو لم يُنبِّهك أحدٌ لما فى بعض الآيات من وزن شعرى .

أما كلام البشر : فإنت إن قرأتَ الموزون : ثم انتقلت إلى المنثور : أحسَّتْ أذنك بهذا الانتقال : ونفس المسألة تشعر بها حين تقرأ المنثور ، ثم تنتقل إلى الموزون : وستشعر أذنك بهذا الانتقال .

﴿ قَالَتْ لَذَلِكَ الَّذِي لَمُعْنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ عَنْ نَفْسِي فَاسْتَعْصَمَ ۖ ﴾ (٣٢)

[يوسف]

قالت ذلك بجرأة مَنْ رأت تأثير رؤيتهن ليوسف ، وأعلنت أنه « استعصم » ، وهذا يعنى أنه قد تكلف المشقة فى حجز نفسه عن الفعل ، وهو قول يثبت أن رجولة يوسف غير ناقصة ، فقد جاهد نفسه ليكبتها عن الفعل .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان امرأة العزيز :

﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَكُنْتَنى وَلَكُونَا مِنَ الْغَافِرِينَ ﴾ (٣٣)

[يوسف]

قالت ذلك وكلماتها هى التى تُصدر الأحكام ، والسامعات لها من من أكبرن يوسف لحظة رؤيته : تعلن لهنَّ أنه إن لم يُطعها فيما

(١) نشر الشعرى : ينشر نهموزاً : ارتفع . ونل نالض : موافق . ونشر فى مجلسه ينشر : ارتفع

قبله . ونشر الشيء : رفعه عن مكانه . [ لسان العرب - مادة : نشر ] .

تريد : فلسوف تسجنه وتُصَفَّر من شأنه لإذلاله وإهانت .

أما النُّسوة اللاتي سَمِعْنَها : فقد طمعت كل منهن أن تطرد امرأة العزيز يوسف من القصر ؛ حتى تنفرد أي منهن به .

ولذلك يُورد لنا الحق سبحانه قول يوسف عليه السلام :

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِنِّي لَأَنْصَرِفُ <sup>(١)</sup>  
عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصَبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ <sup>(٢)</sup> ﴾ (٣٣)

ولسائل أن يقول : ولماذا جاء قول يوسف بالجمع ، وقال :

﴿ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ .. ﴾ (٣٣) [يوسف]

على الرغم من أن امرأة العزيز هي التي قالت :

﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمَرُهُ لَيَسْجَنَنَّ .. ﴾ (٣٢) [يوسف]

(١) السرف : رد الشيء من حال إلى حال . وسرف السجين : أخلى سبيله . وسرف القلوب : يصرفها : حوّلها من الهدى إلى الضلال : ﴿ سَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ .. ﴾ (١٧٧) [التوبة] أي : حوّلها . [ القاموس القويم ٢٧٤/١ ] .

(٢) ضيا يصير : مال واحب ، قال تعالى : ﴿ وَإِنِّي لَأَنْصَرِفُ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصَبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (٣٣) [يوسف] أي : أمِلْ إليهن وأعمل ما يفرينني به . وصيا إلى اللور : حنّ واشتاق إليه . [ القاموس القويم ٣٦٨/١ ] .

(٣) الجهل : الطيئ والسف و التحدى بغير حق . والجهل : ضد العلم وهو السفلو من المعرفة . واسم الفاعل : جاهل ، وصيغة المبالغة : جهول ، ويتعدد معنى الجهل بما يناسب المقام ، قال تعالى : ﴿ وَلَنُكْرِمَنَّ أَقْرَبَهُمْ بِجَاهِلُونَ ﴾ [الأنعام] . [ القاموس القويم ١٧٥/١ ] .  
بتصرف .



ونقول : لا بُدَّ أن يوسف عليه السلام قد رأى منهن إشارات أو غمزات تُوحى له بالأمر يعرض نفسه لذلك الورطة التي ستؤدي به إلى السجن ؛ لذلك أدخل يوسف عليه السلام في قوله المفرد - امرأة العزيز - في جمع النسوة اللاتي جمعهنَّ امرأة العزيز ، وهُنَّ اللاتي طلبنَّ منه غمزا أو إشارة أن يخرج نفسه من هذا الموقف .

ولعل أكثر من واحدة منهن قد نظرت إليه في محاولة لاستمالة<sup>(١)</sup> ، والعيون والانفعالات وقسمات الوجه تعبير أبليغ من تعبير العبارات ، وقد تكون إشارات عيونهن قد دلَّت يوسف على المراد الذي نطلبه كل واحدة منهن ، وفي مثل هذه الاجتماعات تلعب لغة العيون دورا هاما .

وها هو ذا أبو دلامة الشاعر وقد جلس في مجلس الخليفة ، وكان أبو دلامة مشهورا بقدرة كبيرة على الهجاء<sup>(٢)</sup> ، وأراد الخليفة أن يداعبه فقال له : عزمتُ عليك إلا هجوتَ واحدا منا .

ودارت عيون في المجلس ، وأشار له كل من حضر المجلس خفية بأنه سيُجزل<sup>(٣)</sup> له العطاء إن ابتعد أبو دلامة عن هجائه ؛ ولأن أبا دلامة معروف بالطمع ، وخشى أن يضيع منه أي شيء من العطايا ؛ لذلك قام بهجاء نفسه ؛ وقال :

(١) ذكر اللطفي في تفسيره (٢٥٠٧/٤) ، أن كل واحدة طلبت أن تغلو به للنصيحة في امرأة العزيز ، والقصد بذلك أن تغذله ( تأمره ) في حقها ، وتلزمه بمساعدتها . فغله يجيب ، فصار كل واحدة تغلو به على حدة فتقول له : يا يوسف اتق الله لي جاجش فأنا خير لك من سيدك ، تدعوه كل واحدة لنفسها وثراوتها ، فقال : يا رب كانت واحدة قسرتني جناعة .

(٢) هجاء يهجو بهجاء : هتفه بالشعر . وهو خلاف المدح . قال اللط : هو الرقيحة في الأشعار . [ لسان العرب - مادة : مجر ] .

(٣) الجزل : العظيم . وأجزلت له من العطاء أي أكثرت . وعطاء جزل وجزيل إذا كان كثيرا . وقد أجزل له العطاء إذا عظم . [ لسان العرب - مادة : جزل ] .

ألا أبلغُ لَدَيْكَ أبا دَلامَه      فليسَ مِنَ الكِرامِ وَلَا كِرامِه  
إِذَا لَيْسَ العِمَامَةُ كَانَ قِرْدًا      وَخِزِيرًا إِذَا خَلَعَ العِمَامَه  
وهكذا خرج من قسم الأمير : وكسب العطايا التي وعده بها مَنْ  
حضرُوا المجلس .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خراطرتها عنها نجد يوسف عليه  
السلام قد جمع امرأة العزيز مع النسوة : فقال :

﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ .. ﴾ (٣٢) [يوسف]

أي : أن السجن أفضل لديه من أن يوافق امرأة العزيز على فعل  
الفحشاء ، أو يوافق النسوة على دعوتهن له أن يُحرِّر نفسه من  
السجن بأن يستجيب لها ، ثم يخرج إليهن من القصر من بعد ذلك .

ولكن يوسف عليه السلام دعا رب . فقال :

﴿ وَالْأَفْصَرُ عَنِّي كَيْدُهُنَّ أَصْبَ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣٣) [يوسف]

ولسائل أن يقول : ولماذا لم يقل يوسف « يا إلهي » وهو يعلم  
أن مناط التكليف في الألوهية بـ « افعل » و « لا تفعل » ؟

نقول : أراد يوسف أن يدعو ربّه باسم الربوبية اعترافاً بفضله  
سبحانه : لأنه هو جلُّ وعلا مَنْ رِئَاءَ وتعهده : وهو هنا يدعو باسم  
الربوبية ألا يتخلّى عنه في هذا الموقف .

فيوسف عليه السلام يعرف أنه من البشر : وإن لم يصرف الله  
عنه كيدهن : لاستجاب لغوايتهن . ولاصبح من الجاهلين الذين  
لا يلتفتون إلى عواقب الأمور .

وعلى الرغم من أن السجن أمر كره : إلا أنه قد فضله على معصية خالقه ، ولأنه لجأ إلى المربي الأول . لنأني الاستجابة منه سبحانه .  
يقول الحق :

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٣٥﴾

وهكذا تفضل عليه الله الذي خلقه وتولى تربيته وحمايته ، فصرف عنه كيدهن : الذي تمثل في دعوتهن له أن يستسلم لِمَا دَعَتْهُ إِلَيْهِ امرأة العزيز ، ثم غرايتهن له بالتلميح دون التصريح .  
تلك الغواية التي تمثلت في قول الملك من بعد ذلك :

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكَ ۚ ۱﴾ إِذْ رَاوَدْتُهُ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ۚ ۲﴾ (٥٦)

[يوسف]

وهكذا أنجاه الله من مكر النسوة : وهو جلّ وعلا له مطلق السمع ومطلق العلم ، ولا يخفى عليه شيء . ويستجيب لأهل الصدق في الدعاء .  
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ بَدَأْهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ ۚ لَيْسَ جُنْدَهُمْ هَيْهَاتَ ۚ هِيَ يَوْمَئِذٍ شَاوِيَةٌ ۚ لِقَوْمٍ ذُرِّيَّتُكَ يَوْمَئِذٍ ۚ ۳﴾

(١) الخطب : الشأن الذي تقع فيه المخاطبة والمساءلة . قال تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۚ ٥٧﴾ [المجر] أي : ما شأنكم الهام . [ لقاموس القويم ١/١٩٨ ] وقيل في اللسان : « الخطب : اللسان أو الأمر ، منفر أو عظم . ومنه قولهم : جلّ الخطب أي : عظم الأمر والشأن » .  
(٢) قال ابن عباس : « التلميح من الآيات ، وشهادة الشاهد من الآيات ، وقطع الأيدي من الآيات . وإعظام النساء إياه من الآيات » . ذكره القرطبي في تفسيره (٢٥٠٨/٤) .

وبعد أن ظهرت العلامات الشاهدة على براءة يوسف عليه السلام أمام العزيز وأهل مشورته ، وانكشف لهم انحراف امرأة العزيز وإصرارها على أن تُوقع بيوسف في الفعل الفاضح معها ، دون خجل أو خوف من الفضيحة .

لذلك رأى العزيز وأهل مشورته أن يُوضَعَ يوسف عليه السلام في السجن ؛ ليكون في ذلك قَسْصٌ بينه وبينها ؛ حتى تهدأ ضجة الفضيحة ؛ وليظهر للناس أنه مسئول عن كل هذا السوء الذي ظهر في بيت العزيز .

كما أن كلمة : ﴿ لَيْسَ جُنَّةٌ .. ﴾ (٣٥)

[يوسف]

فيها نوع من استبقاء الحب الذي يُكَنُّه العزيز ليوسف ، فهو لم يأمر بقتله أو نفيه بعيداً ؛ بل احتفظ به بعيداً عن الزوجة المُصِرَّة على الخيانة ، وعن المجتمع الذي يُلَوِّكُ تلك الوقائع .

والسجن - كما نعلم - هو حَبْسُ المسجون لتقييد حركته في الوجود ؛ وهو إجراء يتخذه القاضي أو الحاكم كعقوبة يُراد بها إذلال المسجون ، أو وقاية المجتمع من شره .

ونعلم أن الإنسان لا يجترئ على الأحكام إلا حين يظن أو يعلم أن له قدرة ؛ وله غلبة ؛ فيعلن له القاضي أو الحاكم نهاية تلك الغلبة والقدرة ، ويأمر بدخوله إلى السجن ويحرس تقييد حريته سَجَانٌ ؛ وقد يتعرض للضرب أو الإهانة .

هذا هو السجن المتعارف عليه في العصور القديمة والحديثة ، حين تعزل المسجون عن المجتمع ، وقد يعطف عليه بعض من أبناء

المجتمع ، ويزوره بعض من أقاربه ؛ ومعهم المأكولات ؛ والمطلوبات .  
ولكن هناك سجن ديني أسسه رسول الله ﷺ ؛ حين عزل المجتمع  
الإيماني عن السجين ، وقد أمر رسول الله ﷺ ألا يكلم أحد الثلاثة<sup>(١)</sup>  
الذين تخلفوا عن الخروج معه للقتال بحجج واهية ؛ بل وتسامى هذا  
العزل إلى أن صار عزلاً عن الأهل ، إلى أن أمر ﷺ بإنهاء هذا العزل  
بعد أن تحقق الغرض منه .

وملأنا عن حال يوسف في السجن ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي  
أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ  
رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتِلْكَ إِنَّا نَرَاكَ فِي  
رَحْمَةٍ ﴾<sup>(٢)</sup>

من المحسنين ﴿٣﴾

(١) هؤلاء الثلاثة هم : كعب بن مالك ، وبراء بن الربيع العامري ، وهلال بن أمية الوائلي .  
أخرج مسلم في صحيحه (٢٧٦٩) حديث كعب وفيه نصبتهم كاملة في التخلّف عن الخروج مع  
رسول الله ﷺ في غزوة تبوك .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٣٥١١/٤) : « قال « فتیان » لأنهما كانا عبيدين ، والعبد يُسمى  
فتى ، حميراً كان أو كبيراً . ذكره الباورقي . وقال القشيري : وإل الفتى كان اسماً للعبد  
في عرفهم ، ولهذا قال : ﴿ نَرَاكَ فِي رَحْمَةٍ ﴾ [يوسف] . »

(٣) الخمر : الشراب المسكر الذي يغطي العقل ويذهب به ، وهي إما مأخوذة من خمرت  
الشعر ، سترته لأنها تستر العقل ، أو من خمرت العجين : وخمعت فيه الخمير فتفاعل معه  
فاختمر . والخمر في صحتها يوضع الخمير على المسير ويترك حتى يخمّر فتؤخذ منه  
الخمر ، قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مِنَ الْخَمْرِ وَالْمَيْمِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ [البقرة] وقوله  
تعالى : ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ [يوسف] أي : أعصر عنباً ليصير خمراً فهو مجاز  
مرسل علاقته ما سيتول إليه . [ القاموس القويم ٢٠٩/١ ] بتصريف .

(٤) قال القرطبي في تفسيره (٣٥١٢/٤) : « [إسناده ما كان يعود المرضي ويذاويهم . ويعزّي  
الحراني . قال الضحاك : كان إذا مرض الرجل من أهل السجن قام به ، وإذا ضاق وسع  
عليه ، وإذا احتاج جمع له ، وسأل له . »

المعية التي دخل فيها اثنان من الفتية مع السجن هي معية ذات ،  
وقيل : إنهما الخباز والساقى ، وقيل : إن سبب دخولهما هو رغبة  
بطانة عزيز مصر فى التشويش على ما حدث من فضيحة كبرى ؛ هي  
فضيحة مراودة امرأة العزيز ليوسف ؛ ورفض يوسف لذلك .

وكان التشويش هو إذاعة خبر مؤامرة على العزيز ؛ وأن الساقى  
والخباز قد تم ضبطهما بمحاولة وضع السم للعزيز<sup>(١)</sup> .

وبعد فترة من حياة الاثنى عشر مع يوسف داخل السجن ، وبعد  
معايشة يومية له تكشف لهما سلوك يوسف كواحد من المحسنين .

وحدث أن رأى كل منهما حلمًا ، فقررا أن يطلبوا منه تأويل هذين  
الحلمين . والسجين غالبًا ما يكون كثير الوسواس ، غير آمن على  
عده ؛ ولذلك اتجها إليه فى الأمر الذى يهمهم :

﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ  
رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأًا بَيِّنًا ۚ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف]

ومن سياق الكلام نعرف أننا أمام حلمين ؛ فواحد منهما رأى فى  
منامه أنه يعصر خمرًا ، ورأى الثانى أنه يحمل خُبْرًا فوق رأسه تأكل  
منه الطير ، واتجه كلاهما - أو كُلُّ منهما على حدة - يطلبان - تأويل  
الرؤيتين المناميتين ، أو أنهما قد طلبا نبا تأويل هذا الأمر الذى  
راياه .

(١) مما تُكر فى هذا ما قيل من أن الملك غضب على خبازه وصاحب شرابه . وذلك أن الملك  
عمر فيهم لملوه فدخلوا إلى خبازه وصاحب شرابه أن يمتأه جميعًا ، فاجلب الخباز وأبى  
صاحب الشراب ، فانطلق صاحب الشراب فأخبر الملك بذلك ، فأمر الملك بحبسهما .  
فاستأنسا بيوسف . [ تفسير القرطبي ٢٥١١/٢ ] باختصار .

وحيثية لجوئهما إليه هو قولهما :

﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣٩)

[يوسف]

وهذا يدل على أن الإحسان أمر معلوم لكل البشر ، حتى أصحاب النفوس المنحرفة ، فلا أحد يمكن أن يحكم على آخر أنه محسن إلا إذا رافق عمله مقاييس الإحسان في ذهن من يصدر هذا الحكم .

فكل نفس تعرف السوء ، وكل نفس تعرف الإحسان ، ولكن الناس ينظرون إلى الإحسان وإلى السوء بذاتية أنفسهم ، ولكنهم لو نظروا إلى مجموع حركة المتحركين في الكون ، ونظروا إلى أي أمر يتعلق بالغير كما يتعلق بهم ؛ لعرفوا أن الإحسان قدر مشترك بين الجميع .

ونجد اللص - على سبيل المثال - لا يسيئه أن يسرق أحداً ، لكن يسيئه لو أن أحداً قام بسرقة ، وهكذا نرى الإحسان وقد انتقض في أعماقه حين يتوجه السوء إليه ، ويعرف حينئذ مقام الإحسان ، ولكنه حين يمارس السرقة ؛ ويكون السوء متوجهاً منه إلى الغير ؛ فهو يغفل عن مقام الإحسان .

إذن ؛ إن أردت أن تعرف مقام الإحسان في مقاييس الفضائل والأخلاق ؛ فافهم الأمر بالنسبة لك إيجاباً وسلباً .

والمثال الذي أضربه ناتماً هو ؛ قبل أن تَمُدَّ عينيك إلى محارم غيرك ، وتعتبر أن هذا ليس سوءاً ، هنا عليك أن تعرف مقياسه من الحسن إن نقلت الأمر إلى الصورة العكسية ؛ حين تتجه عيون الغير إلى محارمك .

هنا ستجد الميزان - ميزانك للأموال - وقد اعتدل . وإذا أردت اعتدال الميزان في كل فعل ؛ فانظر إلى الفعل يقع منك على غيرك ؛ وانظر إلى الفعل يقع من الغير عليك ؛ وانظر إلى الراجح في نفسك من الأمرين ستجد قلب الميزان متضبطاً .

وأقول دائماً : إن الحق سبحانه حين حرم عليك أن تسرق غيرك ، لم يضيق حريتك ؛ بل ضيق حرية الملايين كي لا يسرقوك ، وهذا مكسب لك .

إنن : فالذي يعرف مقام الإحسان ؛ لا ينسب الفعل الصادر منه على الغير ؛ والفعل الصادر من الغير عليه ؛ بل ينظر إليهما معاً ؛ فما استتبعه من الغير عليه ؛ فليستتبعه منه على الغير .

وقد حكم السجينان على يوسف أنه من المحسنين ، وعلم يوسف عليه السلام من حكمهما عليه أن مقاييس الإحسان موجودة عندهما ؛ ولذلك نظر إلى الأمر الذي جاءه من أجله ، واستغل هذه المسألة ؛ لا لقضاء حاجتهما منه ؛ ولكن لقضاء حاجته منهما .

فقد رأى فيهما شبهة الإيمان بالإحسان ؛ والإيمان بالمحسنين ، فلماذا لا ينتهز الفرصة فيأخذ حاجته منهما ؛ قبل أن يعطيتهما حاجتهما منه ؟

وكانه قال لهما : ماذا رأيتمَا من إحساني ؟ هل رأيتم حُسن معاملتي لكم ؟ أم أن كلا منكما قد رأى دقة اختياري للحسن من القول ؟ وانتما قد لا تعرفان أن عندي - بفضل الله - ما هو أكثر ، وهو ما يقوله الحق سبحانه بعد ذلك في الآية التالية :